المحاضرة07: الغموض في النص الشعري العربي المعاصر.

تمهيد:

يمتاز الشعر من بين أنواع الفنون المختلفة بأن له لغة خاصة غير لغة النثر، وللشاعر أيضا ملكة يستطيع بها أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يرى أنها أقدر على إثارة المشاعر وأفعل في نفس السامع، وهذه اللغة هي التي قصد إليها الشعراء المحدثون وأغرقوا في البحث عن الأثر النفسي لها وإهمال الجانب الفكري منها.

حيث إن السواد الأعظم منهم جرفهم تيار التفجير والتفتيت اللغوي في ظل الهوس بكيمياء اللغة والاستعارات المنبتة الصلة بين المستعار له والمستعار منه،[i] ومن هنا يحدث أن يكون الشاعر غامضا متناقضا، تتعانق كلماته ومشاعره لتقدم موقفا جديدا، ومما لاشك فيه أن الشعر الحديث يتسم في معظمه وفي أفضل نماذجه بالغموض.

أولا - ظاهرة الغموض.

لقد أدرك الشعراء المعاصرون أن الكشف عن الجوانب الجديدة في الحياة يقتضي بالضرورة الكشف عن لغة جديدة، فمن غير المعقول أن تعبر اللغة القديمة عن تجربة جديدة، ولغة عصرنا تختلف عن اللغة في أي عصر مضى ليس من حيث هي لغة مجردة، وإنما من حيث علاقتها بظروفنا المعيشة الراهنة، وبأفكارنا وتصوراتنا وآرائنا، وهذا ما جعل اللغة تتشكل تشكيلا جديدا يتناسب مع واقع الحياة.

والواقع أن قضية الشاعر المعاصر مع اللغة لم تعد تحل ببساطة، كما كانت من قبل عن طريق تحصيل ثروة كافية من ألفاظ المعجم الشعري القديم، وإنما أصبح الحل هو خلق معجم شعري جديد يتناسب وتجارب العصر الجديدة، كما لم يعد الشاعر المعاصر يحس بالكلمات على أنها مجرد لفظ صوتي له دلالة أو معنى، وإنما صارت الكلمات تجسيدا حيا للوجود[ii]، وهذا الإتحاد أضفى على النص الحديث والمعاصر نوعا من التعمية والغموض.

ولقد فرق عز الدين إسماعيل بين مفهوم الغموض الذي يعد من أوجه البلاغة ومفهوم الإبهام الذي ينتج عن تعقيدات لفظية وتركيبية، ومن منطلق هذه التفرقة استطاع إدراج أغلب الشواهد التي تناقلتها مصادر الأدب العربي في باب الغموض من أشعار أبي تمام و المتنبي وغيرهما، تحت باب الإبهام.[iii]

وقد جاءت بعض المذاهب الأدبية الحديثة لتغذي هذا الاتجاه، فبينما وقفت ضده الكلاسيكية والبرناسية، ناصرته ووقفت إلى جانبه الرمزية ثم السريالية، حيث إن الرمزية مثلا اتكأت على مجموعة من الوسائل التي تعين اللغة الوجدانية على نقل أثرها وانفعالاتها إلى المتلقين، نحو تراسل الحواس، وظاهرة الغموض.... وغيرها، مما يجعل الشاعر يحدد بعض أبعاد صورته تاركا بعضها الآخر ظليلا، وإذ لا ينبغي توضيح كل ما بداخله للمتلقي، لأن في ذلك قضاء على متعة النص.

واشترط الرمزيو ن أن يكون هذا الغموض غموضا موحيا يشف عن دلالته بالتأمل لئلا تصير الصورة لغزا من الألغاز، وبهذا تطورت النظرة إلى الصورة الشعرية ومعيار الو ضو ح والخفي فيها على أيدي الرمزيين الذين مهدوا الطريق للسرياليين، فتحولت الصورة بذلك شيئا فشيئا من إطار الخيال الإنتاجي إلى حيز الوهم.[iv]

وهذا الغموض ليس مجرد نتيجة للعبث بالعلاقات المنطقية بين عناصر الوجود فحسب، وإنما هو أيضا وسيلة يستخدمها الشاعر عن وعي لتقوية الجانب الإيحائي في الصورة الشعرية، وخاصة إذا كانت هذه الصورة توحي بتلك الأبعاد الخفية المستترة من تجربة الشاعر، ويعبر عن هذا المعنى الشاعر الفرنسي الرمزي فرلين في قصيدة له بعنوان "فن الشعر"، حيث يرى «أنه لا شيء أثمن من الأغنية الرمادية التي يلتقي فيها الواضح بالمبهم، ويشبهها بعيون جميلة وراء نقاب».[v]

ثم إن توظيف الغموض المشع للإيحاء فنيا بالجوانب الغامضة المستترة في رؤية الشاعر يرتبط من بعض الجوانب بفكرة مشاركة القارئ للشاعر في عملية الاكتشاف والإبداع، لأن الصورة إذا ما حدث للقارئ كل شيء فإنه لن يبقى له شيء يكتشفه ويشعر بمتعه اكتشافه، كما أن في الوضوح خطر الملل، لأن القارئ يؤثر أن يكتشف هو أسرار الصورة بنفسه على أن تنكشف له هذه الأسرار من تلقاء نفسها، فتضيع عليه لذة الاكتشاف والمشاركة في الإبداع،[vi] وهذا الغموض سمة من سمات القصيدة العربية الحديثة والمعاصرة نجمت من الإغراق في استخدام الرمز والأسطورة، وتفريغ الكلمات من معانيها المألوفة بشتى الأساليب والطرق.

ثانيا- نماذج عن الغموض في الشعر المعاصر.

ولنتعرف على طبيعة الغموض الحاصل في النص الشعري العربي المعاصر نستعرض بعض نماذجه، وهي لا تحصى إذ لا نكاد نجد نصا حديثا يخلو من ظاهرة الغموض، فالمتلقي مثلا لمقطع "مرآة الحلم" لأدونيس من قصيدة "مرايا وأحلام حول الزمان المكسور"، يقف على هذه الظاهرة بشكل لافت، حين يقول:[vii]

خذيه، هذا حلمي، خيطيه والبسيه
غلالة: أنت جعلت الأمس
ينام في يدي
يطوف بي، يدور كالهدير
في عربات الشمس
في نورس يطير
كأنه يطير من عيني.

يغلب على المقطوعة جو من الغموض والضبابية والتعتيم الكثيف، ولا يكاد المتلقي يمسك بخيط من الخيوط التي تهديه إلى المسار الشعوري للأبيات، حتى يتفلت منه هذا الخيط مرة أخرى، وبهذا يضيع «في خضم الغموض الكثيف الذي تسبح فيه الصور كلها، ويخرج القارئ في النهاية خالي الوفاض إلا من نتف من إحساسات ومشاعر مبعثرة لا يربطها رابط ولا يجمعها نظام»[viii].

ولأن الغموض كما يقول رامبو «عنصر الشعر الأساسي كما أنه عنصر الموسيقى الأول، فالإيضاح والبوح بكامل الأشياء يعري هذه الأشياء من مثاليتها وجمالها الأرفع، ومن مسحة الحلم الجميلة، فلينف الشاعر الوضوح

وليعمد إلى خلق جو ضبابي منطو على كل عجيب مبهم»[ix]، فإن "رفعت سلام" لا يألو على نفسه استخدام الغموض في قوله:[x]

طرقة...،

فامرأة من البن الخفيف

امرأة من الخفيف

وانفراجة على فضاء يحترق

على ما يقسم الوقت: غبارا فاترا

كما يوحد صلاح عبد الصبور ويمزج بين معاني كثيرة للتعبير عن حالته النفسية والذهنية التي هي في حقيقتها أكثر تعقيدا من طرح يتساءل ويثيرك لتتحسس رأسك، وهو بهذا يدخل بقارئه إلى حقل خاص من حقول الغموض والضبابية، يقول:[xi]

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات

ورؤوس الحيوانات على جثث الناس

فتحسس رأسك

فتحسس رأسك

ونجد مثل هذا المستوى الصياغي عند "محمد عفيفي مطر"، الذي يشكل ما يجول في دواخله من هواجس وخطرات، على نحو يصعب معه استجلاء مكنونات النص ودواخل التجربة وخباياها على نحو جلي وواضح وذلك حين يقول:[xii]

تلبس الشمس قميص الدم،

وفي ركبتها جرح بعرض الرياح

والأفق ينابيع دم مفتوحة للطير والنخيل.

وهكذا لم تعد القصيدة الحديثة تقدم للقارئ أفكارا ومعاني شأن القصيدة التقليدية، وإنما أصبحت تقدم له حالة أو فضاء من الأخيلة والصور والانفعالات وتداعياتها، ولم يعد ينطلق من موقف عقلي أو فكري واضح وجاهز، وإنما أخذ ينطلق من مناخ انفعالي نسميه تجربة أو رؤيا[xiii]، بالإضافة إلى هذا فإن الشاعر الحديث ينطلق من نظرة إلى الشعر تغاير النظرة الكلاسيكية، ويمارس فعل الكتابة بطريقة تغاير تماما الطرائق القديمة. ولقد استطاع أمل دنقل أن يشق لنفسه لغة خاصة، تقوم على تحطيم العلاقات المألوفة بين عناصرها، وتزخر في الوقت نفسه بالغموض والطاقات التعبيرية الإيحائية، يقول مثلا[xiv]:

أعود مخمورا إلى بيتي في الليل الأخير

يوقفني الشرطي في الشارع للشبهة
يوقفني برهة
وبعد أن أرشوه أواصل المسير
توقفني المرأة في استنادها المثير
تسألني إن كنت أمضي ليلتي وحيدا
وعندما أرفع وجهي نحوها... سعيدا
أبصر خلف ظهرها شهيدا.

خاتمة:

لقد استطاع الشعراء المعاصرون أن يخرجوا باللغة الشعرية من البساطة والوضوح، إلى مصطلح جديد ينبض بروح العصر، وهو الغموض... فكان الشعر الجديد يتسم في معظمه وأروع نماذجه بالغموض والضبابية والتعتيم التي تجعل القارئ يحتاج إلى خبرة وثقافة واعية حتى يقك شفرات النصوص، ثم إن هذا الغموض فرضه الواقع المعيش بتقلباته على جميع الأصعدة والمستويات.